الدرس السادس والأربعون: خلق اليقين والتوكل على الله

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة عروس النيل، لما فتح القائد " عمرو بن العاص " مصر منع عادة عروس النيل التي تقضي بإلقاء فتاة شابة مزينة بالحلي في النيل ليفيض عليهم، فتوقف النيل عن الجريان لمدة ثلاثة شهور، فأرسل عمرو بن العاص إلى عمر ☻ ليستشيره، فأرسل يقول له: حسناً فعلت وأرجو أن تلقي في النيل رسالتي التالية: " هذه رسالة من عمر ابن الخطاب إلى نيل مصر أما بعد، فإن كنت تجري من لدن الله فنسأل الله أن يجريك... وإن كنت تجري من لدنك، فلا تجري فلا حاجة لنا بك "، فجرى النيل وفاض! (20).

معاشر الإخوة، اليقين منزلة يحبها الله تبارك وتعالى، ويريد من عباده أن يبلغوها، ولهذا يقول الله ♣ :{**كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**} [الأنعام:75]، فإبراهيم عليه السلام كان مؤمناً بدليل أنه الله تعالى قال في الآية التي قبلها:{**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**} [الأنعام:74]، لكن الله أراد أن يزيده إيماناً بهذا، وأن يجعله من الموقنين، وهي درجة عليا ومرتبة عظمى، فجعل الله سبحانه وسيلة ذلك أن يريه ملكوت السماوات والأرض، فبعد أن أيقن واستيقن به، جزم جزماً قاطعاً أن قومه على ضلالة وتبرأ منهم، ورفع الله تبارك وتعالى حجته عليهم، ودحض شبهاتهم، وأيقن أن الأمن والاهتداء لا يكون إلا للمؤمنين، ولا حظَّ فيهما لأحد من المشركين.

وهذا يشابه أيضاً قول الخليل عليه السلام:{**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**} [البقرة:260]، فهي أيضاً زيادة في اليقين والاطمئنان، ولعلنا نتساءل: كم كان مقدار

اليقين الذي كان عند الخليل إبراهيم عليه السلام، لقد أُمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ابنه، بل ولم يأمره جبريل بقوله: إن الله يبلغك أن تذبح ابنك، ولكن جاء أمره:{إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} [الصافات102]، مجرد رؤيا، فلم يقل: لعلها من الشيطان أو كذا، أو أنام الليلة فإن تكررت فعلت، ولكن اليقين جعله يمتثل، وجعل ابنه كذلك{يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} [الصافات:102]، فقد حصل اليقين عند الأب، وكذلك حصل اليقين عند الابن، وهذه هي الدرجة التي يريدها الله تبارك وتعالى ويحب أن يكون أنبياؤه وأولياؤه عليها (56).

ولقد عَلَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام كيفية التوكل على الله ♣ في سائر الأمور، ففي يوم الهجرة يستأجر مشركاً ليدله على الطريق، وهو سيد المتوكلين، لماذا لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم : معي ربي سيدلني على الطريق؟! لا.

بل يأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالأسباب، فيستأجر مشركاً ليدله على الطريق، ويحمل الراحلة والزاد.

وفي يوم أحد يحارب النبي صلى الله عليه وسلم بين درعين، وكان يدخر لقومه ولأهله القوت في بيته وهو سيد المتوكلين، هذا هو التوكل الحقيقي أن نأخذ بالأسباب، أن نبذر الحب في الأرض، وأن نتعاهد الزرع بالري والحرث والتنقية، وأن تتعلق قلوبنا بعد ذلك بالله لا بالأسباب، لأن الأسباب وحدها لا تضر ولا تنفع، ولا ترزق ولا تمنع إلا بأمر مسبب الأسباب جل جلاله، وهذا هو التوكل الذي أمر الله به نبيه فقال:{وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} [الفرقان:58]{فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ} [آل عمران:159]{إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران:159] (62).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ☺ ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ:"إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ فَتَتَنَحَّى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ

آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟! -[1].

وَعَنْ أَنَسٍ ☺ يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ الله أَعْقِلُهَا - أي أربط الناقة - وَأَتَوَكَّلُ أَوْ أُطْلِقُهَا - أي أتركها حرة - وَأَتَوَكَّلُ؟ قَالَ:"اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ -[2].

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على تعليم الغلمان من أولاد الصحابة كيف يتوكلون على الله حق التوكل، فقد كان يركب وراءه ذات مرة ابن عباس، فقال له:"يَا غُلاَمُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ الله؛ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ الله؛ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ الله وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِالله ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الأَقْلاَمُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ[3] فما أعظمه من حديث، لذا ينبغي أن يعلم كل واحد أهل بيته الرضا بقضاء الله، والشجاعة والإقدام وحسن التوكل على الله تعالى، مع أهمية أن يشرح لهم أن التوكل يعني الأخذ بالأسباب بالجوارح مع التوكل على الله بالقلب، أي التيقن من أن تحقيق الغاية لن يتم إلا بأمر الله؛ فإذا لم يكن هناك أسباب يمكن اتخاذها فالأمر لله، وهنا ينبغي التضرع والدعاء له تعالى لتحقيق تلك الغاية، مع الثقة في حكمته وأن كل ما يأتي به الله خير.

يقول الداعية الإسلامي الأستاذ " عمرو خالد ": كان لي صديق يعمل في إحدى الفنادق الكبيرة بالقاهرة، وكان من ضمن مهام مهنته أن يعد لحفلات يرتكب فيها محرمات، وبينما هو يعد قائمة بالمطلوب لإحدى هذه الحفلات، نظر أمامه فإذا بالشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى يتناول الطعام أمامه في المطعم، فتيقظ ضميره وشعر أنه يأتي مُحرَّماً، فما كان منه إلا أن ترك ما بيده وذهب إليه يسأله، هل ما أفعله بوظيفتي حلال أم حرام؟ فقال له: " إنه حرام "،فقال له: " فماذا أفعل؟ " فقال له: " اتركها "، فرد الشاب " إن لي زوجة وأولاداً، فمن أين سنجد

(1) (صحيح) أخرجه (د ن حب) وصححه الألباني في ص.ج 499.
(2) (حسن) أخرجه (ت) 2517 وحسنه الألباني.
(3) (صحيح)، أخرجه (حم ت ك) وصححه الألباني في ص. ج 7957.

قوتنا؟ "، فرد عليه الشيخ الجليل: " يابني إنه{وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق:2 - 3]، قال له: " إذن أظل بوظيفتي حتى أجد غيرها ثم أتركها "، فرد الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى بحزم: " يا بني إنه يقول:من يتق الله (أولاً) يجعل له مخرجاً (بعد ذلك)... فكيف تريده أن يجعل لك مخرجاً وأنت لم تتقه؟ ".

فظل الشاب يفكر حتى هداه الله إلى كتابة الاستقالة والتوكل عليه سبحانه، ولكنه قبل أن يتم كتابتها إذا بمدير سلسلة الفنادق التي ينتمي إليها هذا الفندق يتصل به ويقول: " أريد أن أخبرك بشيء، فرد الشاب وأنا أيضاً أريد أن أخبرك بشيء - يعني الاستقالة - ولكن المدير قال له: " سأقول لك أنا أولاً: لدينا وظيفة شاغرة لمدير فرعنا بالمدينة المنورة وقد اخترتك لها، فما رأيك؟!!! ".

وهذه قصة واقعية أخرى لمسلم توكل على الله وافتخر بانتمائه للإسلام واعتز بتفضيل مراد الله على مراده: يقول الدكتور " عبد الله الخاطر " الذي كان يعيش في إنجلترا لدراسة الدكتوراه: " التقيت بشاب إنجليزي يعيش في جنوب لندن، وقد أسلم حديثاً، وبعد إسلامه بثلاثة أسابيع عثر على وظيفة، فحاول غيره من الشباب المسلمين أن يحذروه من أن يقول: إنه قد أسلم حين يذهب للمقابلة الشخصية، حتى لايكون ذلك سبباً في عدم قبوله، فيتأثر نفسياً فيرتد عن دينه، إلا أن هذا الشاب توكل على ربه ولم يخشهم، فذكر لأصحاب العمل أنه قد أسلم وكان اسمه " رود "، فأصبح " عمر "، وقال لهم أيضاً بفخر: " لقد غيرت ديني واسمي وأريد وظيفة تتيح لي وقتاً للصلاة، فما كان منهم إلا أن قبلوه في تلك الوظيفة!!! وكان الأمر أعجب عندما قالوا له: " إننا نريد في هذه الوظيفة رجلاً عنده القدرة على اتخاذ القرارات وأنت عندك قدرة عظيمة جداً في اتخاذها، فقد غيرت اسمك ودينك وهذا إنجاز كبير!!! (20).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *